

الذراع الملهجي بالمتحف الأثري في تلمسان:

دراسة أثرية

الرزقي شرقي

ملخص: يحتفظ المتحف الأثري بتلمسان، ضمن مقتنياته المتنوعة اليوم، بشاهد أثري نادر في غاية الأهمية على صعيد الغرب الإسلامي برمته. حول ما أسماه عبد الرحمن بن خلدون في مقدمته الذائعة الصيت باسم: «علم المقادير»، ويسمى حالياً باسم «علم التقييس»، أو «الميتروولوجيا» (METROLOGY) لدى شعوب العالم الإسلامي في فترة القرون الوسطى، بشكل عام، ومنطقة الغرب الإسلامي منه، بشكل خاص؛ على اعتبار أنه الشاهد المادي الوحيد، الذي سلم من التلف والضياع في الوقت الراهن. إذ يتعلق الأمر بشكل من أشكال الأذرع النموذجية المعتمدة رسمياً في أسواق الرعية، من طرف أحد حكام الدول المتعاقبة على أرض المنطقة، قبل اعتماد النظام الدولي الموحد في الفترة المعاصرة. وقد زادت أهمية هذا الأثر أكثر، بعد التأكد من فقدان ذراع جامع غرناطة في غضون القرن (١٢هـ / ١٨م) إلى الأبد، ساعة تعويضه بكنيسة مسيحية ما تزال قائمة في مكانه حتى اليوم؛ وتشويهه الذراعين المرينيين بقيسارية مدينة فاس المغربية، قبل اختفائهما بشكل تام في ظروف غامضة مع مطلع عقد عشرينيات القرن المنصرم (القرن العشرين).

Abstract: Today, within its diverse collections, the Museum of Archaeology in Tlemcen preserves a rare material document of what Abd el Rahman Ibn Khaldoun called in his introduction: «The Science of Ingredients», and is now called: «The science of standardization» or «Metrology». During Medieval times, this exceptional document regulated the commercial interactions of Muslims in general, and those of western region of Dar el Islam in particular. At the moment, it is the only material witness to have escaped damage or loss.

مقدمة

الإسلام المترامية الأطراف (ابن الجياب: محمد أمين: ٥ و- ١٢ و: ابن الأخوة ٢٠٠١: ٩٠ - ٩٢: الماوردي: ١٩٤ - ١٩٥: الفلقشندي: ٤٤٢ - ٤٤٣: شرقي ٢٠٠٨: ٨٥ - ٨٦، ٨٩ - ٩١: الطيار ٢٠٠١: ١٤٥ - ١٨٤).

إلا أن تفاوت مقداره من شخص لآخر، حتم على أنظمة حكم تلك المجتمعات العريقة إلى ضبطه بذراع أنموذجي^(١)، عادة ما يكون مختلفاً من حضارة، أو دولة إلى أخرى، كما هو الحال عليه مع هذا الشاهد الأثري النادر على صعيد الغرب الإسلامي برمته، والذي يعود للإمارة الزيرية في المغرب الأوسط، التي حكمت الجزائر في الفترة ما بين سنتي (٦٣٧-٩٦٤هـ/١٢٣٦-١٥٥٤م)، موضوع هذه الدراسة.

شكل الذراع منذ أقدم العصور، الوحدة الأساسية لقياس الأطوال في المعاملات التجارية، إلى حين اعتماد النظام المتري الدولي الحديث خلال الفترة المعاصرة. وقد عمل به، على سبيل المثال لا التخصيص والحصر: المصريون القدماء، والكنعانيون، والبابليون في حضارة العراق القديم، والفرس، والصينيون في أقصى الشرق؛ كما عمل به الإغريق والرومان في العالم الغربي، والقرطاجيون في شمالي إفريقيا، وأجدادهم الفينيقيون من قبل في ساحل الشام (الطيار ٢٠٠١: ١٤٥ - ١٥٦: DECOURDEMANCHE 1913: 2 - 8: BROSELARD 1861: 24 - 26: REYNIERS 1952: 10 - 16)؛ وكذلك المسلمون في مختلف أنحاء دار

١) وصف الذراع

«الْحَمْدُ لِلَّهِ وَالشُّكْرُ لِلَّهِ هَذَا قِيَاسُ قَالَةِ الذِّرَاعِ»^(١)

بالقيسارية

عَمَّرَهَا اللَّهُ فِي شَهْرِ رَبِيعِ الثَّانِي عَامَ ثَمَانِيَةِ وَعِشْرِينَ
وَسَبْعِ مِائَةٍ»

٢) ظروف اكتشاف الذراع في الفترة المعاصرة

دخلت قوّات الاحتلال الفرنسي بشكل مؤقت إلى مدينة
تلمسان عام (١٨٣٦) م، حيث استقرت كتائب جيشها آنذاك
بقلعة المشور، الذائعة الصّيت، ولم تُستحدث مقرّات غيرها
باعتبار أنّ تلك القلعة كانت كافية لإيواء طلائع الجيش
المحتلّ (LECOQ 1936: 645 - 663)؛ أمّا بعد الدّخول
الثّاني عام (١٨٤٢) م، فقد كان كاسحا بنية الاستقرار
الدّائم، ولذلك بادر إلى مصادرة ممتلكات الأهالي، وتهديم
قسم معتبر من مباني المدينة في سبيل إعادة تهيئتها من
جديد على نحو يخدم أغراض المحتلّين، من دون إعاره

قوام هذا الذراع، المحفوظ اليوم بالمتحف المحلي بمدينة
تلمسان (معزوز ودرياس: ٢٠٠١: ١٦ - ١٧؛ شرقي ٢٠٠٨:
٩٠؛ مارسيه ٢٠١١: ٥٧؛ BROSSELDARD 1861: 14 - 30؛
82- 81 MARÇAIS 2003)، كتلة من الرّخام الأبيض،
النّاصع البياض، إذ تبدو في شكل مستطيل منتظم الأضلاع،
أبعاده (١٨ × ٦٦) سنتمرا (اللوحة: ١)؛ يتخللها على أحد
الوجهين (الشّكل: ١) نَحْتٌ مقدار الذراع الذي بلغ طوله على
وجه الدّقة والتّحديد سبعة وأربعين (٤٧) سنتمرا، وذلك
بشكل غائر بمقدار نصف (٥, ٠) سنتمتر في أعلى الكتلة
مع تجزئته ضمنيا إلى أربعة أجزاء متساوية (١١، ٧٥)
سنتمرا؛ وبالأسفل منه هيئٌ خرطوش غائر لتدوين كتابة
تذكارية بارزة مع تمحيصها على خلفية غائرة؛ حيث تقع في
سطين منفذين بخط أندلسي مُتقن^(٢)، يفصل بينهما خط
مستقيم بارز سمكه سنتمتر واحد، هذا نصّها:



اللوحة ١: الذراع الملكي الزياني، نقلا عن: مارسيه (٢٠١١).



الشّكل ١: تفريغ لكتابات ورسم الذراع بأجزائه الأربعة، نقلا عن: بروسلا (١٨٦١).

وبذلك، تمّ إنقاذ هذا الأثر المهم صدفة من معول التّحطيم والهدم^(٥)، مثله في ذلك مثل إنقاذ تمثال «فينيس» (VENUS) عام ١٨٤٦م، المعروف اليوم بالمتحف الوطني للآثار القديمة، حين أدركه الباحث «مارسي جورج» صدفة على ظهر نقالة عامل محجرة بشرشال، يستعد للرمي به في فرن طحن الكس، حيث بادر إلى شرائه منه بدريهمات قليلة، وإيداعه بالمتحف المحفوظ فيه حاليا (LEGLAY 23 - 21 : 1957).

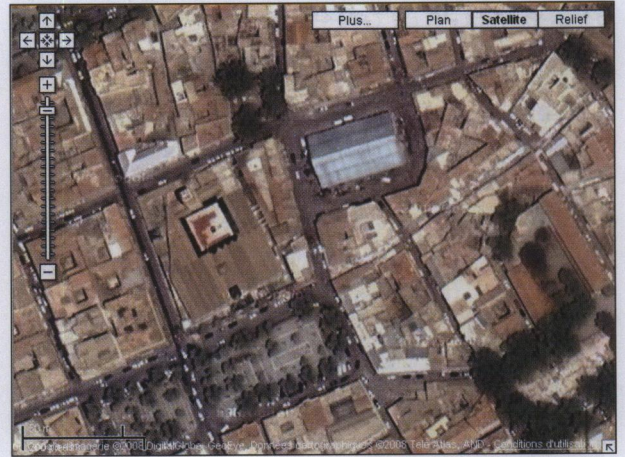
٣) البيئة التاريخية التي أخذت في خضمها الذراع الملكي

اتّسم التاريخ الزياني^(٦) بكثرة المحن، واللااستقرار بشكل عام، نتيجة وقوع إمارتهم الفتية بين فكي كماشة، فكّ بنوا عمومهم المرينيين في المغرب الأقصى من ناحية الغرب، وفكّ الحفصيين بتونس من جهة الشرق، المتصارعين فيما بينهما حول الإرث السياسي للدولة الموحدية بالمغرب الإسلامي، إذ كانت تعدّ مسألة حسم السيطرة على بلاد المغرب الأوسط (الجزائر) لأحد الطرفين المتصارعين آنذاك، بمثابة كسب لذلك الرّهان السياسي الكبير في المنطقة.

وهي وضعية محرّجة في واقع الأمر أربكت الاستقرار السياسي الزياني، وتعطيل حركة هياكله المؤسسية، والحيلولة بينه وبين إحكام نفوذه الإداري على كامل أنحاء



اللوحة ٣: آثار الجزء العلوي من باب القيسارية وإلى خلفه سور الطمس من الخارج كما يبدو من داخل أحد المنازل المجاورة. (تصوير الزميل: «نقادي سيدي محمد» مشكورا).



اللوحة ٢: صورة جوية تحدّد طريق الوصول من وسط مدينة تلمسان إلى موضع باب القيسارية، مكان العثور على الذراع الملكي، وهو باب مطموس اليوم بشكل كامل.

أدنى اهتمام لحقوق الأهالي العزل ومشاعرهم، ومصير تراثهم المعماري العريق.

فكان من جملة ذلك، إقدام الإدارة العسكرية الفرنسية على هدم قسم معتبر من الحيّ التجاري في المدينة، الذي يُعرف حتى اليوم باسم «القيسارية»^(٧)، والذي كان يمتدّ على مساحة كبيرة لا تقلّ عن خمسة هكتارات كاملة في محاذة الجامع الكبير من الناحية الشرقية (اللوحة: ٢)، بغرض تهيئة مقرّ جديد لإيواء وإقامة كتائب إضافية من قوّات الجيش الفرنسي هناك.

وقد بُشرت أعمال الهدم للتو على ذلك المستوى من المدينة، وكان ما شدّ انتباه قائد مفرزة الهندسة العسكرية، الموكّل لها القيام بالمهمة، «بارنار» (BERNARD)، ذلك اللوح الرّخامي المعني بهذه الدّراسة (اللوحة: ١)، الذي كان مُعلّقًا بشكل غائر في جدار مدخل القيسارية قبل إقدام مصالح الهندسة العسكرية الفرنسية على تجديده (اللوحة: ٣)، إذ بادر إلى انتزاعه من مكانه الأصلي، والاحتفاظ به لنفسه في بيته الخاص منذ ذلك الحين حتى عام (١٨٦٠م)، تاريخ إهدائه عن طواعة إلى متحف المدينة، الذي كان في طور الإنشاء من طرف أحد مترجمي الجيش الفرنسي نفسه، ألا وهو المستشرق «شارل بروسلا»^(٨)، شيخ بلدية تلمسان في وقت لاحق (مارسيه ٢٠١١: ٩؛ BROSSELDARD ١٨٦١: ٢٢).

التاريخية حملة الخليفة عبدالمؤمن بن علي الموحدي من قبل (٥٢٤ - ٥٥٨ هـ / ١١٢٩ - ١١٦٢ م)، فقد قرّر هذا الأخير الاستيلاء على مدينة تلمسان من جديد، لما تنطوي عليه من أهمية جيو إستراتيجية، بغرض اتخاذها قاعدة دعم تربط بين عاصمته الإدارية والسياسية مدينة فاس بالمغرب الأقصى، وبقية المناطق المراد إلحاقها بدولته بالمغربين الأوسط (الجزائر)، والأدنى (تونس) (٧).

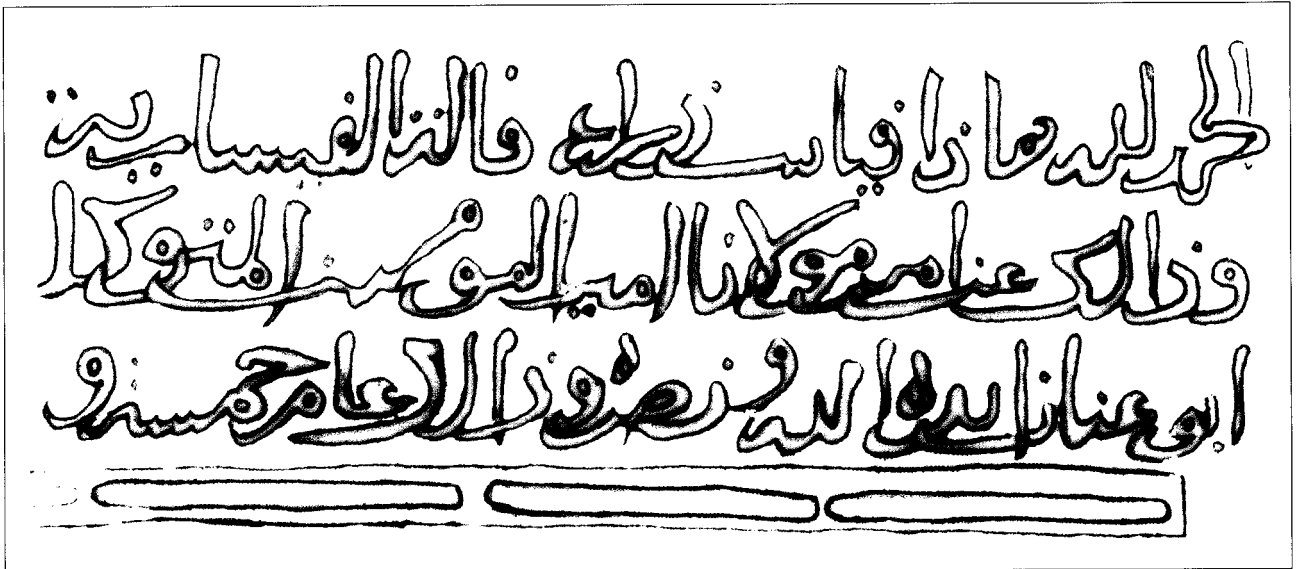
وقد برز على مسرح الأحداث آنذاك، أحد كبار بناء الإمارة الزيانية، ألا وهو صاحب الذراع الملكي السلطان أبي تاشفين عبدالرحمن بن أبي حمو عثمان بن أبي سعيد بن أبي يحيى يغمراسن بن زيان (٧١٨ - ٧٣٧ هـ / ١٣١٨ - ١٣٣٧ م)، الذي كانت فترة حكمه، المقدرة بتسع عشرة سنة، عصر تطوّر وازدهار لتلمسان في مختلف مناحي الحياة: كبناء بعض قصور قلعة المشور، وبناء المدرسة التاشفينية، التي هدمها الفرنسيون عام (١٨٧٣ م)، وبناء مئذنة الجامع الكبير بمدينة الجزائر، منتهى الامتداد السياسي لدولته نحو الشرق ببلاد المغرب الأوسط، وتوفير الماء للمدينة ببناء الصهرج الكبير، وتزويده بقنوات تربطه بمنايع ثرة تقع بأعالي المنصورة على بعد بضع كيلو مترات من هناك، إلى جانب تنظيم الحياة التجارية والصناعية في عاصمة الدولة، وتوحيد نظام تقييس دولته، كما هو متجلب بوضوح مع هذا الشاهد الأثري المتميز (اللوحة ١): والذي كان تاريخ وفاته إيذان بنهاية عصر الازدهار الأول في تاريخ الإمارة الزيانية برمتها (ابن خلدون يحيى ١٩٠٣: ٢١٩؛ ابن الأحمر ٢٠٠١: ٧٢ - ٧٣؛ التتسي ١٩٨٥: ١٣٩ - ١٤٤).

فقد استطاع هذا العاهل بحنكته السياسية، وعزيمته الجامحة مسح آثار البؤس والحرمان اللذين عرفتهما مدينة تلمسان أيام الحصار المريني الأنف الذكر، والارتقاء بها في وقت وجيز إلى مصاف مركز استقطاب للعلماء، والمتعلمين، والتجار، ومفوضيهم من كل حذب وصوب، وتحول مدينة تلمسان بموجب ذلك إلى نواة دارة تجارية إقليمية في غاية الأهمية على صعيد منطقة الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط، تجمع بين المشرق العربي ومغربه من جهة، وبين دول الجنوب الأوربي وفي مقدمتهم الجمهوريات الإيطالية الاثنتا عشرة (١٢)، وفرنسا، وإسبانيا على وجه الخصوص

المغرب الأوسط بشكل دائم، إذ يُعد نظام التقييس أحد لبناته الأساسية (شرقي ٢٠٠٨: ٨٧)، لاسيما بعد إقحام الأمراء الزيانيين الطامحين لتبوء سدة الحكم بوحي منهم، أو من دون وعي في ذلك الصراع الإقليمي المرير، الذي بدأ في شكل حرب سجال بين المتخاصمين إلى غاية سقوط غرناطة عام (٨٩٨ هـ / ١٤٩٢ م)، تاريخ بداية منعطف جديد في مجريات الأحداث التاريخية بالمنطقة.

إذ بدأت باحتلال القوات الإسبانية لسواحل المغرب الإسلامي بدعوى ملاحقة الأندلسيين اللاجئين هناك، لتأديبهم على ما كبّدوه من خسائر فادحة استهدفت مصالح المملكة الإسبانية الموحدة، في إطار ما يُعرف تاريخيا بعمليات «الجهاد البحري»، على حسب زعمها الباطل لتبرير تدخلها السافر في الشأن الداخلي للدولة الزيانية المشرفة على الاحتضار، والتي سرعان ما تحول عرشها المهلهل إلى لعبة طيعة في يد الإسبان، يوجهونه كيف يشاءون، في ظل حكم أمراء ضعفاء لا همّ لهم غير الجلوس على عرش إمارة لم يعد لها وجود بأيّ ثمن كان، حتّى ولو كان ثمنه خيانة الرعية، والأهل وموالاة نصارى الإسبان في وضح النهار، وهو ما أثار نقمة الرعية على هؤلاء ودعوة الإخوة بربروس للتدخل قصد وضع حدّ لذلك الوضع المتردي، الذي تتطلب من العثمانيين تضحيات جسام قبل التمكن من إعادة الأمور إلى مسارها الطبيعي في نهاية المطاف (شرقي ٢٠١١).

ففي خضم هذا المشهد التاريخي القاتم، عرفت الدولة الزيانية فترات انتعاش قصيرة، ورخاء اقتصادي ظرفي من حين لآخر، أبرزها فترة الهدنة المؤقتة التي أعقبت حصار مائة (١٠٠) شهر الذي طوّق به المرينيون مدينة تلمسان، عاصمة الدولة الزيانية، في الفترة الممتدة ما بين شهر شعبان (٦٩٨ هـ / ١٢٩٨ م)، وشهر ذي القعدة من عام (٧٠٦ هـ / ١٣٠٦ م) (ابن أبي زرع، ١٨٤٣: ٢٦٧)، وفترة غزو السلطان المريني أبي الحسن علي بن أبي عثمان سعيد (٧٣١ - ٧٤٩ هـ / ١٣٣١ - ١٣٤٩ م) لها مرة ثانية عام (٧٣٥ هـ / ١٣٣٥ م)، وخضوعها بموجب ذلك للاحتلال المريني المباشر، منذ ذلك التاريخ حتّى سنة (٧٦٠ هـ / ١٣٥٩ م)، في إطار حملته التوسعية الكبرى في بلاد المغرب الإسلامي، التي ضاهت في مداها، واتجاه حركتها، وأهميتها



الشكل ٢: ذراع مريني باسم السلطان أبي عنان فارس، مؤرخ بعام (٧٥٥هـ/١٣٥٥م)، تفريغ المدارس نقلا عن صورة أوردها: «المنوني محمد» (١٩٩٦).

وهو ما حفّز سلاطين بني رّيان على تخصيص تلك القيسارية المحصّنة بجدار خارجي، تُغلق أبوابه يوميا عند صلاة العصر (BROSSELDARD 1861)، وتزويدها بكل مرافق الحياة، كالفنادق، والمخازن، وبيوت العبادة، وتوفير المياه، وكلّ ما يحتاجه التجّار الأجانب في حياتهم اليومية من خدمات في سبيل حماية الرّعايا الأجانب ظاهريا، وضمان استمرار تدفق التجّار على تلمسان بشكل مكثّف لإنعاش اقتصادها الهشّ باطنيا.

وقد كان من جملة ما يُباع بكثرة في تلك القيسارية: الأفرشة، والأقمشة، والمطرّزات الحريرية التي اشتهر بنسجها التلمسانيون في ذلك الوقت (ابن خلدون يحيى ١٩٠٣: ج ١، ٢٢)، فضلا عن نظيرتها المستوردة من أوروبا كالقטיפه والأقمشة الحريرية الرفيعة، إذ كانوا يحتكمون في تقدير مقاساتها جميعا إلى الذراع الملكي، المارّ الذكر (اللوحة: ١، والشكل: ١)، وبذلك جاء أمر اتخاذ هذا الذراع الأنموذجي على ما يبدو في خضم الرّواج الاقتصادي الكبير الذي عرفته مدينة تلمسان في عهد السّلطان الزياني أبي تاشفين الأوّل عبد الرحمن بن أبي حمّو (الأوّل)، كإجراء إضافي لمنجزاته المعمارية ومشاريعه الإصلاحية العديدة آنذاك، كما سلفت الإشارة من قبل.

في بلدان السّودان الغربي من جهة ثانية (Brosselard 1861: 369; Maslartie 1966: T1. 221; Mauny 1961: 18)؛ ما أدّى إلى ارتفاع الكثافة السّكانية فيها، وكثرة عدد التّجار الوافدين عليها، وزيادة عدد الصّناع والحرفيّين المقبلين عليها من كلّ مكان، إذ توسّعت حركتها التّجارية الدّائبة بين المقاطعات الدّاخلية، والأقطار المجاورة بوتيرة متسارعة (الوزان ١٩٨٣: ج ١٧. ٢)، وانتظام محلات بيعها، وورشات صناعتها في شكل أحياء، ومجمّعات حرفية محكمة التّنظيم (العقباني ١٩٦٧: ١٣٧-١٣٨)؛ كما يمكن أن يُستنبط من خطط قيسارية القرن (٥٨هـ/١٤م)، الواقعة بشمال شرقي المدينة (اللوحة: ٢) من مرافق عامّة كالفنادق، والحمامات، والمحلات التّجارية، التي ما يزال بعضها قائماً على حالته الأصليّة إلى اليوم، ومساجد إسلاميّة وكنائس مسيحيّة، فيما تبقى من رسم هذا الحيّ التّجاري العتيق^(أ)، وعادت الأساطيل التّجارية الأوروبيّة في حركة دائبة بين موانئ الزّيّاتيّين بالمغرب الأوسط (المرسى الكبير بوهران، وميناء رشقون بين حدود ولاية تلمسان، وولاية عين تومشتن حالياً، وميناء هنين، الواقع في خطّ عموديّ شمال موقع مدينة تلمسان الحالي على بعد نحو ستّين (٦٠) كيلو متراً منها)، وموانئ أوروبا الجنوبيّة، كالموانئ الإيطاليّة، والموانئ الفرنسيّة، والموانئ الإسبانيّة على وجه الخصوص (حركات ١٩٩٦: ١٧٩: 14-15; BROSSELDARD 1861).



الشكل ٣: ذراع مريني باسم السلطان أبي عنان فارس، مؤرخ بعام (٧٥٥هـ/١٣٥٥م)، تفريغ الدارس نقلا عن صورة أوردها: «المنوني محمد» (١٩٩٦).

٤) الأهمية التاريخية والأثرية للذراع

يُقدر طول هذا الذراع بسبعة وأربعين (٤٧) سنتمترا كما سلفت الإشارة، ما يدرجه في زمرة الذراع «السوداء»^(٩)، التي أمر الخليفة العباسي هارون الرشيد بوضعها من قبل في ضوء طول ذراع عبد أسود كان واقفا عند رأسه. وهو الذراع الذي تعاملت به الرعية في ذرع البرّ، وبقية المبادلات التجارية الأخرى، بل وحتى الأبنية، وتقدير منسوب فيضان النيل بمصر وانحصاره، باعتبار أنّ طول هذا الأخير، هو (١٤٠، ٤٧) سنتمترا (شعلان ٢٠١١: ١٥٢).

خِلَافاً للذراع المريني الكبير (الشكل: ٢) المُفتقد مستهل القرن الماضي (القرن العشرين) في ظروف غامضة، البالغ طوله خمسة وخمسين (٥٥) سنتمترا، والذي أمر العاهل المريني أبي عنان فارس بتقديره عام (٧٥٥هـ/١٣٥٥م) بوصفه العاهل المريني الوحيد الذي خلف إسهاما موثقاً في مجال إصلاح وحدات الأطوال على هامش اعتناء آبائه وأجداده بوحدات الكيل والوزن لا غير (شرقي ٢٠٠٨: ٨٥). وقد كان موضعه بسوق العطارين في مدينة فاس العريقة، منحوتاً في رخامة بيضاء على شاكلة كتلة الذراع الملكي الزياني تماماً، رغم ضرر الكسر البليغ الذي لحق بطرفه الأيسر (الشكل: ٢)، والذي كانت تكتنف لوحته الرخامية كتابة تسجيلية تقع في ثلاثة سطور بدل سطرين في الذراع الملكي الزياني، وإلى الأسفل منها تم نحت أجزاء مقدار الذراع (الشكل: ٢) على عكس نحتها في أعلى الكتابة بالذراع الزياني (الشكل: ١)، هذا نصّها:

«الحمد لله هاذا (كذا) قياس ذراع قاله القيسارية/
[كسر ليس بالوسع تصوّر مضمونه]

وذلك (كذا) عن أمر مولانا أمير المؤمنين

المتوكّل / [على ربّ العالمين] - تتمة فضاء

الكسر-

أبو عنان أيده الله ونصره، وذلك عام خمسة و /
[خمسين وسبعماية] - تتمة فضاء الكسر-».

وهو بذلك ذراع كما يمكن أن يستنتج من موضعه في القيسارية من جهة، وعلى حسب تسميته المحلية من طرف أهل مدينة فاس باسم «القاله الكتانية» (المنوني ١٩٦٥: ٢٥٠؛ نفسه ١٩٩٦: ١٤١ - ١٤٢)، من جهة ثانية، بأنّه كان مخصّصاً لبيع وشراء الأقمشة العادية، والأغطية، والأفرشة المنسوجة محلياً؛ ولا يستبعد الدارس فكرة اقتباسه عن طول الذراع الرشاشي الأندلسي، الذي كان منحوتاً على بدن أحد أعمدة جامع غرناطة المهذّم في القرن (١٢هـ/١٨م)، المنسوب إلى ابن فرح الرشاشي، والذي خصّه ابن الجياب المتوفى في حدود (٦٨٠هـ/١٢٨١م) برفع خاص في كتابه الرياضي، الذي ما يزال مخطوطاً حتى الآن، والموسوم بـ: «التقريب والتيسير لإفادة المبتدين بصناعة مساحة السطوح» (محمد الشريف ١٩٩٩: ٦٠)؛ إذ رسمه بطول (٤، ١٨) سنتمتراً، أي بمقياس رسم يعدل ثلث (١/٣) الأبعاد الحقيقية للذراع، الذي يعدل بتقدير النظام المتري الحديث (٨٦١، ٥٥) سنتمترا (الطيار ٢٠٠١: ١٥٣) لجملة من الاعتبارات التاريخية والثقافية الوطيدة التي كانت تجمع بين غرناطة وفاس، آنذاك، والتي ليس بالوسع الوقوف عند تفاصيلها الدقيقة في هذا المقام.

والذراع المريني الصّغير (الشكل: ٣)، قياساً لنظيره السابق (الشكل: ٢)، البالغ طوله هذه المرّة ستّة وأربعين (٤٦) سنتمترا، والذي قدّر بأمر من العاهل أبي عنان نفسه في السّنة نفسها التي عدّل فيها سابقه، إذ كان ملتصقا،

خاتمة

وصَفُوهُ القول، فإنَّ الذراع الملكي الرّياني يبقى من الشّواهد الأثرية النّادرة ليس على صعيد مقتنيات التّراث الأثري الجزائري فحسب، بل على صعيد الغرب الإسلامي برمته، لا سيما بعد تأكد فقدان ذراع جامع غرناطة اليوم؛ والذراعين المرينيين بقيسارية مدينة فاس إلى الأبد، المماثلين للذراع الرّياني، ولا يستبعد فرضية تبني أبي عنان فارس فكرة الأذرع الأنموذجية في سوق الطّرز والمنسوجات بفاس من قيسارية تلمسان التي لم تتج من احتلاله، واحتلال والده في الفترة الممتدة ما بين (٧٢٧-٧٦٠هـ/ ١٢٢٧-١٢٥٩م)، باعتبار أن ذراع قيسارية تلمسان هو الأسبق ظهوراً (٧٢٨هـ/ ١٣٢٨م) من تاريخ تعديل ذراعي أبي عنان المريني؛ وتورث تلك السّنة لبقية الأسر المحليّة، المتعاقبة على عرش المملكة المغربية من بعده حتّى الفترة المعاصرة، كما قد يستشفّ من إقدام السّلطان العلوي مولاي إسماعيل، عام (١٢٣٤هـ/ ١٨١٨-١٨١٩م) على تعديل ذراع مماثل للأذرع الثلاثة المذكورة.

قبل ضياعه هو الآخر في ظروف ضياع سابقه نفسها، بأحد جدران مكتب المحتسب على ارتفاع نحو خمسين (٥٠) سنتمتراً من مستوى سطح الأرض، أي غير بعيد من موضع الذراع الأول (٨١: ١٩٩٣: MICHEL). منحوتاً على هيئة سابقة في رخامة بيضاء اللّون، تتضمّن نصّ كتابة تذكارية يقع في سطرين متوازيين هذا نصه:

«الحمد لله، أمر بعمل هاذو (كذا) القالة مولانا

أمير المؤمنين، أبي/

عنان أيده الله ونصره، وذلك (كذا) عام خمسة

وخمسين وسبعماية».

وبذلك فهو وحدة قياس مخصّصة لبيع وشراء الأقمشة المطرّزة الرّفيعية بأسواق فاس، كما يمكن أن يُستنبط من تسميته لدى الأهالي باسم: «القالة الدّرازية»، والقالة الإدريسية» (المنوني ١٩٦٥: ٢٥٠؛ نفسه ١٩٩٦: ١٤١)؛ ولا يُستبعد فكرة اقتباسه عن الذراع اليوسفي الذي صمّمه قاضي قضاة العراق أبي يوسف، المتوفى عام (١٨١هـ/ ٧٩٨م)، الذي يعدل بالنّظام المتري الحديث على وجه الدّقة والتّحديد (٩٧٥، ٤٥) سنتمتراً (الطّيار ٢٠٠١: ١٥٨).

د. الرزقي شرقي: قسم الآثار - جامعة تلمسان - الجزائر.

الهوامش:

- (١) أقدم الأذرع الأنموذجية في تاريخ الحضارة الإسلامية سبعة (٧)، وقد كانت كلها متداولة في بلاد العراق في فترات زمنية متلاحقة. يقول الماوردي بهذا الشأن ما نصّه بالحرف الواحد: «فالأذرع سبع، أقصرها القاضية، ثمّ اليوسفية، ثمّ السّوداء، ثمّ الهاشمية الصّغرى وهي البلالية، ثمّ الهاشمية الكبرى وهي الرّيادية، ثمّ العمرية، ثمّ الميراثية»، قبل أن يغوص في تفصيل سبب تسميتها بتلك الأسماء، وذكر موطن استخدامها، وبيان الفرق الرّياضي بينها (الماوردي: ١٩٤ - ١٩٥).
- أمّا بخصوص الذراع الشّرعية التي نقلها ابن الأخوة عن الغزالي، فمقدارها أربعة وعشرين (٢٤) إصبعا، إذ يعدل كلّ إصبع منها مقدار عرض ستّ حبّات شعير، متراصة إلى بعضها بعضاً في وضع جانبيّ، ومقدار عرض كل شعيرة من حبّات الشّعير الموصوفة بمقدار سمك ستّ شُعرات من عَرَف البرذون، المتراسة بعضها إلى بعض (ابن الأخوة ٢٠٠١: ٩٢).
- (٢) الخط الأندلسي: خط من ابتكار محليّ خالص، تختصّ به منطقة الغرب الإسلامي من دون غيرها من أقاليم دار الإسلام، فهو يجمع على مرّة واحدة بين خصائص الخط اليابس (الكوفي)، ومواصفات الخط اللّين (خط النّسخ) في آن واحد. عُرِف الخط التذكاري منه، أي الخط المدوّن على واجهات المباني المعمارية، والقطع النقدية، ونحوهما، شأن الوثيقة الأثرية المدروسة في هذا المقام باسم «الخط الأندلسي»، فيما اصطلح على «خط التدوين» منه، أي ذلك الخط الذي ميّز كتابة المصاحف، وجل المخطوطات المغاربية المؤلفة في شتّى مناحي المعرفة بمصطلح «الخط المغربي».
- (٣) «قالة الذراع» هذه العبارة، الواردة في الشّكل (٢) اللاحق باسم «قالة القيسارية»، وفي الشّكل (٣) الموالي لسابقه باسم «قالة» فقط، معناها وحدة القياس المرجعية المعادلة لطول الذراع الأنموذجي بصرف النظر عن طبيعة المادّة المتخذة منها. كالمسطرة الخشبية التي يستخدمها في الوقت الرّاهن بعض الخياطين، أو الأشرطة القماشية، أو النّحت على الحجر، أو الرّخام كما هو عليه الحال مع مقياس الثّيل بمصر. والأذرع المغاربية (الزّبانية والمرينية)، الواردة في صلب هذه الدّراسة، ويقصد بمصطلح «القالة» ذلك الرّسم، أو الحفر على الرّخام الذي يعدل مقدار الذراع المرجعي في المعاملات التجارية بأسواق الرّعية.

- (٤) «القيسارية»: هي السُّوق التي تختص ببيع وشراء الأقمشة والمنسوجات على وجه الخصوص، لكن قد تعني السُّوق المغلقة، أو المغطاة بشكل عام، دون اعتبار تخصصها التجاري، مثل ما هو الحال عليه في الثقافة المغاربية.
- (٥) يذكر الزميلان معزوز عبد الحق، ودرياس لخضر في مرجعهما المذكور أنفا (معزوز ودرياس ٢٠٠١: ١٦) بأن مصدر هذا الأثر، هو مقبرة سلاطين بني زيان بجوار مسجد سيدي إبراهيم المصمودي، وهو أمر لا أساس له من الصّحة، ولا يُعرف مصدر أخذهما لهذه المعلومة غير الموثقة لديهما.
- (٦) أكثر تفاصيل حول تاريخ الزّيانيين بالمغرب الأوسط، ينظر بشكل خاص المصادر الآتية: (التّسي ١٩٨٥: ابن خلدون (يحيى) ١٩٠٣: ج١: ابن خلدون (يحيى) ١٩٨٠: ج٢: ابن خلدون (عبد الرحمن) ١٨٧١: زهر البستان ٢٠١٣: ابن أبي زرع ١٨٤٣: ابن الأحمر ٢٠٠١: الوزان ١٩٨٣: ج٢: مرمول ١٩٨٤: ج٢: بربروس ٢٠١٠: Documents Inédits 1875).
- (٧) أكثر تفاصيل حول مناقب هذه الشّخصية اللّامعة في التاريخ المريني، ينظر بشكل خاص (ابن مرزوق ١٩٨١).
- (٨) قدّر المؤرّخ الغربي «غرمي» (GRAMAYE)، عدد الجالية المسيحية من التّجار، والقناصل، المقيمين بتلمسان آنذاك بنحو الألفين، وأضاف من جهته بشأن المفوضين التجاريين الأوروبيين، المحبين للعمل في تلمسان قائلا: «كان المفوضون الأجانب يقيمون بمحض إرادتهم في تلمسان، لأنهم وجدوا في أخلاق أهلها الوداعة، والأمان على بضائعهم، وقد كان عددهم معتبرا» (BROSSELDARD 1861: 18 - 19).
- (٩) يُشير محمد شعلان في مقاله الآنف الذكر (شعلان ٢٠٠١: ١٥٢) إلى أنّ هذا الذراع من تصميم الخليفة العباسي «المأمون»، مُخالفا بذلك رأي المصادر التاريخية المعروفة في هذا الشّأن، كالماوردي، وابن الأختة اللّذين يذكران أنّ المأمون قد اتخذ لنفسه الذراع الميراثية، وأنّ الذراع السّوداء كانت لأبيه «هارون الرّشيد».

المراجع:

أولا: المراجع العربية

- ذكر الملوك من بني عبدالواد، نشره وصحّحه بال ألفرد، مطبعة بيبير فونطانا الشّرقية، الجزائر، الجزء الأوّل.
- ابن خلدون (أبو زكريا يحيى بن محمد الإفريقي) ١٩٨٠، بُغية الرّواد في ذكر الملوك من بني عبدالواد، تقديم وتحقيق وتعليق عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية، الجزائر، الجزء الثاني.
- ابن مرزوق (محمد التّلمساني) ١٩٨١، المُسنَد الصّحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، دراسة وتحقيق، ماريّا خيسوس بيغيرا، تقديم محمود بوعباد، الشّركة الوطنية للنّشر والتّوزيع، الجزائر.
- بربروس (خير الدّين) ٢٠١٠، مذكرات خير الدين بربروس، ترجمة دّراج محمد، شركة الأصالة للنّشر والتّوزيع، الجزائر.
- التّسي (محمد بن عبد الله، المعروف بالحافظ التّسي) ١٩٨٥، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان (مقتطف من نظم الدرّ والعقيان في بيان شرف بني زيان)، حقّقه، وعلّق عليه محمود بوعباد، المؤسّسة الوطنية للكتاب، الجزائر.
- العقباني (أبو عبد الله محمّد بن أحمد بن قاسم بن سعيد التّلمساني) ١٩٦٧، كتاب تحفة النّاظر وغنية الذاكر في حفظ الشّعائر وتغيير المناكر، تحقيق عليّ الشّنوفي، في: مجلّة الدّراسات الشّرقية للمعهد الفرنسي بدمشق، الجزء ١٩، (مسئلة مستقلة).
- القلقشندي (أبو العباس أحمد بن عليّ)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا (كذا)، نسخة مصوّرة عن الطّبعة الأميرية بتصويّبات واستدراكات وفهارس مفصّلة مع دراسة وافية، (بدون ذكر تاريخ الطّبع)، المجلّد الثالث.
- الماوردي (أبو الحسن عليّ بن محمد القاضي)، الأحكام السّلطانية

- ابن الجباب (أبو طاهر محمد المرادي، المتوفى في حدود عام ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م)، التّقريب والتّيسير لإفادة المبتدين (كذا) بصناعة مساحة السّطوح، مخطوط محفوظ بمكتبة الإسكوريال، مقيد تحت رقم ٩٢٩.
- محمّد (أمين)، مقدمة في حكم تقسيم الذراع الشّرعي ووضع المقاييس، مخطوط محفوظ بالمكتبة العامّة بالرّباط، مسجّل تحت رقم القيد: 1210D / ١٣٧٨.
- ابن أبي زرع (أبو الحسن عليّ بن عبد الله الفاسي) ١٨٤٣، كتاب الأنيس المطرب روض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، عنى بتصحيحه، وطبعه، وترجمته كارل يوحن نورنبرغ، دار الطّباعة المدرسية، أوبسالة.
- ابن الأحمر (أبو الوليد إسماعيل بن يوسف الخزرجي الأنصاري النّصري) ٢٠٠١، تاريخ الدّولة الزّيانية بتلمسان لابن الأحمر، تقديم وتحقيق وتعليق هاني سلامة، مكتبة الثقافة الدّينية للنّشر والتّوزيع، القاهرة، الطّبعة الأولى.
- ابن الأخوة (ضياء الدّين محمّد بن محمّد بن أحمد بن أبي زيد القرشي) ٢٠٠١، معالم القرية في أحكام الحسبة، علّق عليه ووضع حواشيه إبراهيم شمس الدّين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطّبعة الأولى.
- ابن خلدون (أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الإفريقي) ١٨٧١، تاريخ الدّولة الإسلامية بالمغرب (الجزء السّادس من كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السّلطان الأكبر)، تقديم وتصحيح وتنقيح ونشر البارون دوسلان ماك كيقن، دار الطّباعة السّلطانية، الجزائر.
- ابن خلدون (أبو زكريا يحيى بن محمد الإفريقي) ١٩٠٣، بُغية الرّواد في

- متحف تلمسان)، مطبعة سومر، الجزائر.
- المنوني (محمد) ١٩٩٦، «ورقات عن حضارة المرينيين»، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، سلسلة بحوث ودراسات، رقم ٢٠، الطبعة الثانية.
- الطيار (محمد شعلان)، «نظم القياس الطولي والمساحية الإسلامية (دراسة مقارنة)»، في: مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، العددان ٧٣ - ٧٤، ٢٠٠١، ص ١٤٥ - ١٨٤.
- المنوني (محمد) ١٩٦٥، «نظم الدولة المرينية ٢ النظام الاقتصادي»، في: مجلة البحث العلمي، جامعة محمد الخامس بالرباط، العددان ٠٤ - ٠٥، ص ٢٤١ - ٢٦٨.
- شرقي (الرزقي) ٢٠١١، «العثمانيون ودورهم في حماية حاضرة المغرب الأوسط مدينة تلمسان من الاحتلال الإسباني ساعة احتضار الدولة الزيانية»، محاضرة أقيمت بمدينة تلمسان، ضمن أشغال الملتقى الدولي: «تاريخ حاضرة تلمسان ونواحيها»، الذي جرت وقائعه أيام ٢٠ - ٢٢ فبراير ٢٠١١ في إطار فعاليات تظاهرة تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية ٢٠١١ - قيد الطبع.
- شرقي (الرزقي) ٢٠٠٨، «التقييس الرسمي ببلاد المغرب الإسلامي (دراسة أثرية ومقاربات تحليلية لأدواته المتبقية)»، أطروحة دكتوراه غير منشورة، قسم علم الآثار، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر.
- والولايات الدينية، دار الكتب العلمية، بيروت (بدون ذكر تاريخ الطبع).
- مرمول (كربخال) ١٩٨٤، إفريقيا، ترجمة عن الفرنسية محمد حجّي، محمد زنيبر، محمد الأخضر، أحمد توفيق، أحمد بن جلون، مكتبة المعارف، الرباط.
- مؤلف مجهول ٢٠١٣، زهر البستان في دولة بني زيان، تحقيق وتقديم بوزياني الدراجي، مؤسسة بوزياني للنشر والتوزيع، الجزائر، الجزء الثاني.
- الوزان (الحسن بن محمد الفاسي) ١٩٨٣، وصف إفريقيا، عربيه عن الفرنسية محمد حجّي، ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، الجزء الثاني.
- حركات (إبراهيم) ١٩٩٦، النشاط الاقتصادي الإسلامي في العصر الوسيط حتى القرن ١٠٩ هـ/ ١٧٥٠ م، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء.
- الشريف (محمد) ١٩٩٩، الغرب الإسلامي نصوص دفيئة ودراسات، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد المالك السعدي، تطوان.
- مارسيه (ويليام) ٢٠١١، مقتنيات متحف تلمسان، عربيه وقدم له شرقي الرزقي، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر.
- معزوز (عبد الحق)، ودياس (لخضر) ٢٠٠١، جامع الكتابات الأثرية العربية، الجزء الثاني كتابات الغرب الجزائري، الكتاب الأول (مجموعة

ثانياً: المراجع غير العربية

Brosselard, C. 1861. «Les Inscriptions Arabes De Tlemcen (XIV. La coudée royale de Tlemcen – Le quartier franc d'El Kissaria)», In: **Revue Africaine**, N° 05, pp 14 – 30.

Decourdemanche, J. A. 1913. **Traité des monnaies, mesures et poids anciens et modernes de l'Inde et de la chine**, Editeur Leroux Ernest, Paris.

De La Primaudaie, F Élie 1875. **Documents inédits sur l'histoire de l'occupation espagnole en Afrique (1506 – 1574)**, Publiés par ordre de M. le maréchal DE Macmahon, Duc de Magenta, Gouverneur général de l'Algérie, Editeur A. Jourdan, Alger.

De Maslatrie, M. L. 1966. **Traités de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des chrétiens avec les Arabes de l'Afrique septentrionale, au moyen âge**, Paris, Tome 1.

Lecoq, A. 1936. «L'occupation de Tlemcen en 1836», **Revue Africaine**, N° 79, pp 645 663.

Leglay, M. 1957. «La sculpture antique du musée Stéphane Gsell», **Série Conférences Visites du musée Stéphane Gsell (1956–1957)**, Imprimerie officielle du gouvernement général de l'Algérie, Alger, pp 21 – 23.

Marçais, G. 2003. **Tlemcen, Série villes d'art célèbre**, éditions du Tell, Blida.

Mauny, R. 1961, **Tableau géographique de l'Ouest Africain au moyen âge**, Dakar.

Michel, N. 1993. «Poids et mesures de l'agriculture et de l'alimentation dans le Maroc précolonial», **Hespèris – Tamuda**, Paris, Volume 31, pp 77 100.

Reyniers, F. 1952, **Notes métrologiques sur la Sicile, l'Afrique et l'Orient**, Alger.